الخروج من الكابوس

في المرحلة الضبابية من إغماءتي اليومية العميقة أراني نائما وكأنني قد انفصلت عن ذاتي. يبدو لي الأمر و كأني أشاهد أحد العروض السينمائية المثيرة.أجل، فها هي غرفة نومي المنظّمة أراها رأي العين بينما صوت التكييف اللعين يشرخ صمت الليل بأزيزه المتواصل. بل ها هي زوجتي في إغماءتها العميقة هي الأخرى تغط في نوم عميق و قد اطمأن جوارها طفلنا الوليد الذي يحلم بأحلامه الطفولية الجميلة. أوتراني أتوهم؟ و لكن أنّى يتأتى لي ذلك بينما أرى شبح ابتسامة ترتسم على وجه طفلي فأبتسم له سعيدا؟ أراقب نفسي جيدا. أتراني أحلم الآن بذات الأحلام؟ بالتأكيد لا؛ فهناك ضيق ما أراه يرتسم على ملامحي المنقبضة و كأني أكاد أن أختنق. إني بالفعل أحرك رأسي يمنة و يسرة كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة. لا بد أن هناك شبئا ما يخفى علّي. أقترب بهدوء من جسدي المتوتر محاولا معرفة الحقيقة. أندمج فيه ببساطة فأدخله. أرى ظلا ما يشبه في جملته إنسانا أو كائنا شبيها يقترب منّي بهدوء. أتأمله جيدا فإذا الأشياء تبدو واضحة جلية من خلال جسده الأسود الشفيف. رعدة قوية تشملني حينما يقف جانبي لتنتصب على أثرها الملايين من الشعيرات التي تغطي جسدي. شعور قوي بكون قيد حديدي يكاد أن يخنقني يحتويني. بكل ما أوتيت من قوة أحاول الحركة فأفشل. شلل أصاب مركز

إرادتي فأفقدني القدرة التامة على الحركة. يزداد الضيق الجاثم على صدري فأكاد أن ألفظ أنفاسي. أحول نظري تجاه زوجتي النائمة جواري. أناديها بقوة لكنها كانت تسعد بأحلامها. يراودني الأمل حينما أراها تتقلب إلا أنها سرعان ما أعطت ظهرها لي لتمارس طقوس نومها المطمئنة. موجة من الإحباط الشديد تشملني. يبدو لي الأمر وكأني أزعق من أعماقي ولكن ما من أحد يستطيع سماعي. أحاول مناداتها مرة أخرى،متمسكا بأهداب الأمل الذاوي حينما يمسك الظل الأسود يدي رافعا إياها. حينما أفشل في جذب انتباهها أنهره آمرا إياه أن يتركني. يخرج صوتي مشوه الملامح وكأنه قادم من أعماق جب سحيق. تنتبه زوجتي الراقدة جواري فتستيقظ فزعة على صوتي المشوه. تحاول إيقاظي برعب فأعود إلى رشدي بينما يدي التي كان يمسك بها ما زالت عالقة في الهواء.

***

في اليوم التالي كنت أتأمل تجربتي السابقة بتمهل. كانت قد عاودتني كثيرا في الفترة الأخيرة حتى كدت آلفها وكأنها واجب يومي. كنت قد أمسيت تائقا للنوم كثيرا كي تعاودني التجربة فأتأملها على مهل، وكأن الكابوس قد صار صديقا أحبه وأرغب في حضوره اليومي. كنت قد هيأت نفسي اليوم للتعرف عليه عن قرب. خرجت زوجتي لقضاء شيئا ما لم أسألها عنه؛ فرغبتي الشديدة في الانفراد بكابوسي جعلتني أتعجل خروجها. حاولت التحايل على النوم حينما

صرت وحيدا إلا أني لست أدري متى غشيتني سنة من نوم فرحت في سبات عميق. أراه قادما بعيدا بعيدا في خطواته الواثقة المتحدية. نوع من التوتر يغشاني بهالة شديدة من الضيق. أحاول النطق بصعوبة حينما يقف لصيقا بي:

– ماذا تريد؟

صوت ما قادم من اللاجهة:

– لا شئ.

حالة الدهشة القصوى التي تنتابني تجعلني ألتزم الصمت طويلا. أتأمل ملامحه المطموسة تماما وكأنه لا شئ. مجرد ظل أسود شفيف لإنسان ما. أقول بغيظ:

– إذن فما سر زيارتك اليومية لي؟

– انه القدر المسلط علّي وعليك منذ الأبد.

– أي قدر هذا؟ هل لك أن تزيدني فهما؟

بحيادية غريبة:

– قدري أن آتي للناس في أحلامهم فيصيبهم الضيق الشديد المصحوب بفقد الإرادة، وقدرهم أن يحدث لهم ما يحدث حين ظهوري لهم.

ينتابني شعور ما بكون رنة حزن بسيطة في صوته فأشفق عليه. أكاشفه:

– أحزين أنت من شيء ما؟

بغضب وكأنني قد أهنته:

– بل غاضب من وصفكم لي بالكابوس.

مندهشا:

– و كيف نصفك إذن في حين أنك تصيبنا بالاختناق؟

يهتف بشكل أكثر غضبا:

– كيف تجرؤ على مناقشتي؟ انه أمر لم يفعله أحد من أبناء جنسك من قبل.

مبتسما:

– أعلم ذلك، لكني أدمنتك حتى صرت واقعا يوميا.

بعد فترة صمت طويلة:

– إذن ما رأيك في لعبة شيقة نلعبها معا؟

بدهشة:

– أية لعبة؟

– سآتيك يوميا فأجثم على صدرك، إما أن تقاومني وتصدني أو أحاول خنقك حتى تكاد أن تلفظ أنفاسك.

– أستقتلني بالفعل؟

– بالطبع لا.. ومن سيمارس معي لعبتي بعد موتك؟ سأتركك حينما تكاد أن تختنق.

بعد تفكير عميق:

– لكنها لعبة خطرة.

– إذن فأنت لا توافق عليها.

رغبتي الشديدة في خوض التجربة تجعلني أنطق هاتفا:

– بالتأكيد أوافق، ولكن هل ستفي بوعدك لي بعدم خنقي؟

مبتسما:

– بالتأكيد، ألسنا أصدقاء؟

***

صار كابوسي الجميل يأتيني أكثر من مرة يوميا حتى صرنا بالفعل أصدقاء، بل انه بدأ يغير في قواعد اللعبة دون استشارتي فبات يباغتني في يقظتي بالرغم من اتفاقنا بإتيانه لي أثناء نومي فقط. كثيرا ما كنت أشعر بتوتر ما يصيب جسدي أثناء اليقظة ليصلّبه فأعرف أنه قد بدأ لعبتنا الخطرة. استمر الحال على هذه اللعبة شهرا كاملا أذكر أنه قد حاول مرتين أو ثلاثا خنقي حتى كدت أن ألفظ أنفاسي بالفعل. يومها غضبت منه و هددته إذا هو فعلها مرة أخرى فسوف تكون قطيعة بيننا و لن ألعبها معه ثانية فعاهدني على عدم فعلها، إلا أنه كان كثيرا ما ينقض العهد الذي بيننا ويعيد الكرة مما أورثني كراهية شديدة له وتربصت له شرا!

***

كنت قد اتفقت مع الكابوس على اللقاء اليوم بعد منتصف الليل فوافق. أقبّل زوجتي وولدي منتظرا إياهم حتى يغطوا في نومهم. أهيئ نفسي لتأخذني سنة من نوم. لم أدر كم من الوقت مرّ علّي مذ ذهبت في غيبوبتي إلا أني انتبهت علي صوت ما يعاني اختناقا شديدا. أنظر حولي فإذا بها زوجتي متقلصة الملامح تكاد أن تختنق. أرعد غاضبا:

– أخرج منها أيها الوغد... ليست هذه قواعد اللعبة التي اتفقنا عليها.

إلا أن ملامحها المتقلصة كانت تزداد تقلصا بينما جسدها يبدو متيبسا وكأن هناك من يجثم عليه. أحاول إيقاظها بكل ما أوتيت من حيلة إلا أنها كانت تكاد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. أسرع إلى سكين حاد شارعا إياه محذرا:

– إذا لم تخرج الآن قتلتك.

إلا أن تجاهله لي وملامح زوجتي التي تلفظ أنفاسها جعلاني أهوى بقوة على صدرها، عنقه، بطنها، في محاولة يائسة لقتله بينما أرى الدماء المنبثقة كالشلال هادرا من الفتحات التي صنعها سكيني الحاد.